1

الفصل الأول

الاستكشافات الجغرافية والتوسعات الاستعمارية الأوربية

تعد الاستكشافات الجغرافية شكلاً مميزاً من أشكال العصور الحديثة، مقارنة بالآراء والمعتقدات الجغرافية التي كانت سائدة في أوربا خلال العصور الوسطى،فقد كان الأوربيون يتصورون أن الأرض قرص كبير منبسط يحيط به البحر، ومركز هذا القرص هو بيت المقدس، أو أن الأرض محاطة ببحار تنتهي بجدران تشدها السماء، وأن هذه البحار تتحول في الشمال إلى كتل جليدية، وفي الجنوب بخار بسبب الحرارة الشديدة، وقد كانت هذه التصورات مرتبطة بالخرافات التي كانت تعلن عنها الكنيسة في العصور الوسطى، لأجل هيمنتها على عقول الناس، حيث لم تقبل مناقشة أي من الأمور التي كانت تروجا،لكي تنفرد في سلطتها الدينية والدنيوية دون منافس، ولكي تحافظ على امتيازاتها التي تدر عليها أرباحاً كثيرة على كبار رجال الدين وحلفائهم من طبقة النبلاء ألإقطاعيين.(2)

بدأت المعلومات الجغرافية بالتطور أثر اتصال الأوربيين بالعرب المسلمين،عن طريق الحروب الصليبية والأندلس وصقلية التي أيقظت أوربا من سباتها وتخلفها، والتي أدت إلى فتح أبواب الأسواق التجارية لهم في الشرق، ومهدت لقيام العلاقات التجارية والاقتصادية بين الشرق والغرب، وسعت المدن الايطالية خاصة البندقية، لتكون حلقة اتصال بين معطيات الحضارة الإسلامية والغرب الأوربي في العصور الوسطى.(3)

لقد كان للرحالة والعلماء العرب أثرهم الفعلي في تطور المعلومات الجغرافية لدى الأوربيين، الذين أطلعوا على رحلة الرحالة المغربي أبن بطوطة (1324–1355م)، وكتابه الموسوم ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الإسفار))، الذي قدم فيه وصفاً لبلاد الصين والسودان، وقد ترجمت العديد من المؤلفات العربية الجغرافية إلى اللغة اللاتينية فضلاً عن ذلك فأن أوربا مدينه للعرب بحفظهم معلومات اليونان الجغرافية، التي لم يعرفها الأوربيون، إلا من خلال كتب العرب والتي لم تكتف بحفظ المعلومات اليونانية، بل ما لبث العرب أن قاموا بتصحيح ما وقع فيه جغرافيو اليونان من أخطاء، وأضافوا من تجاربهم الشيء الكثير، ومن هذه المؤلفات كتاب الشريف الإدريسي الموسوم ((نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والأفاق))، وهو يحتوي على أكثر من أربعين خارطة، ويقال أن الرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما Vaso De gama درس خرائط البحار التي رسمها العرب من قبل، ومن الجدير بالذكر أيضاً أن المعلومات التي خلفها الرحالة ماركو بولو Marco Polo

(1295-1271م)، حول ما شاهده من الكنوز والخيرات الزراعية والصناعية في جنوب أسيا وبلدان الشرق الأقصى في مؤلفه الذي أسماه (كتاب العجائب)، كان لها تأثيرها في تنامي المعلومات الجغرافية.(4)

أما في مجال استخدام التقنيات في الكشوف الجغرافية، وتقدم الفن الملاحي، واكتشاف القوم لأدوات حديثة للملاحة، فيعود الفضل فيها للعرب أيضاً، فقد استخدموا البوصلة (بيت الإبرة) التي اخترعت في القرن الثالث عشر في الملاحة بشكل واسع، وأوصلوها إلى ألأوربيين، حيث أن الكثير من الناس كانوا يصفونها بأنها أداة من صنع الشيطان لكن البوصلة مكنت البحارة الأوربيين من معرفة مواقع مراكبهم بالنسبة إلى الشمال الذي يشير إليه دائما اتجاه الإبرة المغناطيسية في البوصلة، وكذلك أوصل العرب للأوربيين آله (الإسطرلاب)، التي تساعد البحارة في تقدير المسافات، وتعين الاتجاهات وهم في عرض البحار،(5) وقد انعطفت أوربا بعد ذلك على الدرس الحضاري، وتمثلته ثم طورته ما شاء لها من التطوير بفضل ذلك التراث العربي، بما فيه من فنون البحر بالذات، استطاعت أوربا أن تخرج إلى المحيط وتتوغل في البحار، وتكتشف المجهول منها. (6)

● دوافع الاستكشافات الجغرافية :-

1. الدافع الاقتصادي :

اختلفت دوافع قيام الاستكشافات وتعددت، إلا أن الدافع الاقتصادي، هو الدافع التي أوحت للأوربيين بالاتجاه نحو الكشف، فقد كان العرب والايطاليون بالتحديد منهم تجار مدينة البندقية وجنوه يحتكرون التجارة عبر البحر الأبيض المتوسط بين أوربا والشرق الأقصى، ومن خلال عدة طرق منها الطريق البري من أواسط أسيا إلى القسطنطينية ومنها إلى أوربا، والثاني عن طريق البحر حيث كانت سفن العرب تنقل السلع والبضائع من جنوب أسيا إلى البصرة في العراق، ومنها بالقوافل حتى تصل موانئ بلاد الشام، على البحر المتوسط، ومن ثم ينقلها التجار الايطاليون إلى أوربا، أما الطريق الثالث، فكان عن طريق بحر العرب ثم البحر الأحمر، إذ كانت سفن العرب المسلمين تنقل البضائع من خلال هذا الطريق إلى السويس ومن ثم عبر الصحراء بالقوافل إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية، لينقلها بعد ذلك الايطاليون إلى أوربا عبر البحر، وكانت البندقية تحصل على الجزء الأكبر من تجارة الشرق، لتباع في سوق ريالتو

Riaito في المزاد العلني للتجار الألمان والانكليز وغيرهم، ومن البضائع التي لم يكن ينتجها الأوربيون، والتي كانت بحاجة ماسه لها، منذ حروب الإفرنج (الصليبية) كانت عبارة عن الأقمشة القطنية والحريرية والكتانية، والمصنوعات الفخارية والخزفية، والذهب والفضة والتوابل والأحجار الكريمة وبعض الأخشاب.(7)

كان لتدهور الدولة العربية الإسلامية وتفككها، ثم سقوط كيانها في القرن الثالث عشر الميلادي، الأثر في فسح المجال للأوربيين بمحاولة التقدم إلى منطقة الوطن العربي وعموم أسيا وأفريقيا، فقد أدى اكتساح المغول لمعظم أجزاء أسيا وسقوط الدولة العباسية ببغداد عام 1258م على أيديهم وعلاقتهم الجديدة مع الأوربيين إلى تعرف هؤلاء على أسيا وخصوصاً الشرق الأقصى، وكذلك فأن سقوط دولة الموحدين والتي كانت تضم منطقة المغرب العربي بأجمعه والأندلس عام 1268م (أي بعد عشر أعوام من سقوط بغداد) وانقسامها إلى دويلات صغيرة، دفع الأوربيين إلى غزو السواحل المغربية العربية، حيث تفاقمت خطورة هذا الغزوات بسقوط مدينة غرناطة عام 1492م، إلا أن هذا التوغل توقف في منطقة الوطن العربي، وعموم أسيا وأفريقيا باعتناق المغول الدين الإسلامي وظهور المماليك و الأتراك العثمانيين، وبالتالي انحصرت محاولات التوغل الأوربية في بداياتها والتي سميت بالاستكشافات الجغرافية في سواحل المغرب الأقصى وأفريقيا المطلة على المحيط الأطلسي.(8)

إن تغير الموازين السياسية هذه، وسقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح عام 1453م، قد أدى إلى تغيير الموازين الاقتصادية، التي كانت متمثله بالتجارة بين أوربا من جهة وأسيا وأفريقيا من جهة أخرى، مما جعل طريق التجارة الشرقية مغلقاً في وجه الأوربيين، وأن الضرائب الكثيرة التي فرضها أمراء المماليك في مصر على البضائع المارة في بلادهم إلى أوربا، زادت في أسعار البضائع إلى درجة لم يستطع معظم الأوربيين اقتنائها، لقد أدى هذا الأمر وكذلك سيطرة واحتكار الايطاليين للتجارة إلى البحث عن منفذ جديد يصلون بواسطته إلى الهند والشرق الأوسط دون المساس مع الدولة العثمانية، فوجد التجار الأوربيون ضالتهم في حركة الاستكشافات الجغرافية التي كانت قد بدأت منذ عام 1421م، وهكذا تجمعت المصالح التجارية والأطماع التوسعية للحكام الأوربيون،التي كانت أهدافها اقتصادية هي الأخرى من مطامع المغامرين من محبي اكتشاف مجاهل البحار والقارات والبحث عن الذهب والثروات، فتوسعت حركت الكشوف الجغرافية التي حصلت على دعم أخر من الكنيسة